تعليم اللغة العربية للطفل الجزائري، بين التمكين للفصحى وحتمية التداول اللهجي

Arabic Language Education for Algerian Children: Between Empowering Standard Arabic and the Inevitable Use of Dialects

بلال لعفيون [1,*]

[1] جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، (الجزائر)، bilal.lafioune@univ-jijel.dz

تاريخ الإيداع: 2025/07/01 **تاريخ المراجعة**: 2025/09/08 **تاريخ النشر**: 2025/10/01

ملخص:

تَهدِفُ الدّراسة إلى تَحليلِ المُعطى اللُّغوي (اللغة/ اللهجة) في العَمليةِ التَّعليمية؛ لأنَّ تعلِيم اللغة العَربية للناشِئةِ في الجزائِرِ تَعصِفُ بِهِ عِدّة مَوجات، أهمُّها الاقتحام المتزايد للهجَات في التَّخصُّصَات التَّعلِيمية واستحواذِهَا على اللُّغة الفصحى الرسميّة في جُلِّ مَيادِينِ الحَياة. الأمرُ الذي تَسبَّبَ فِي حُصُولِ اختِلالات وأمرَاض لُغوية، أَسقطَت مَكانَة الفُصحى وفَرضت لَهجَات ولُغَات أَجنَبِيّة مَحلَّهَا. هذه الأخيرة أَدّت إلى خَلخَلَة النِّظام الصَّوتيّ للغة العربية، وكذا قَواعِدَها، زيادة إلى تعكِيرِ صَفو المُعجَمِ اللُّغوي. ما دفعنا إلى تشخيصٍ واقع العَملية التَّعليمية في الجزائر، قصد تقديم تفسير لتراجُعِ الفُصحى في لُغَةِ التَّواصُلِ في مُقَابِلِ تَنامي وانتِشَارِ العَاميات.

الكلمات المفتاحية: تَعلِيميّة اللُّغَة، تَعلِيمُ النَّاشِئة، اللَّهجات، اللُّغة الفُصحى، التَّدَاول.

Abstract:

This study aims to examine the linguistic reality, standard language versus dialect, in the educational process. The teaching of Arabic to young learners in Algeria is currently challenged by multiple factors, most notably the increasing infiltration of local dialects into educational contexts and their dominance as the primary medium of communication across various spheres of life. This shift has led to significant linguistic disruptions and disorders, undermining the status of Modern Standard Arabic (MSA) and allowing dialects and foreign languages to take its place. These developments have destabilized the phonological and grammatical systems of Arabic and polluted its lexical repertoire. Accordingly, there is a pressing need for an in-depth diagnosis of the current educational situation in Algeria to explain the decline of MSA in everyday communication and the simultaneous rise and spread of dialects.

Key words: Language pedagogy, children's language education, dialects, Modern Standard Arabic, linguistic usage.

* المؤلف المراسل:.

تقديم:

الوقوفُ بالدراسَةِ على العَمليّةِ التَّعليميّةِ اللُّغوية بالجزائر يَتَطلّب –في البداية- التعمّق في فَهمِ مُجريَات العَملية التَّواصلية بين أفرادِ المُجتمع اللُّغوي الجَزائِري؛ لأنَّ التَّداول الفِطري للغة هو أول منطلق للعملية التعلِيمية التعلُّمِية، حتى أنه كثيرا ما يُعرف التمكّن للغة معينة انطلاقا من مدى توافق النّظام الصوتي للهجة مع اللغة الفصحى؛ فمثلا: من تكون لغته الأم "العربية" ولهجته الأولى من "اللهجات العربية"، سيكون متمكنا من مخارج الحروف العربية فطريا. أمَّا من تكون لهجته الإنجليزية أو الألمانية مثلا، فسيعسر عليه تحقيق بعض مخارج الحروف في اللغة العربية، وخاصة حروف الحلق العربية، وهذا بسبب التباعد والاختلاف في مخارج الحروف بين هذه اللغات واللغة العربية.

أي متى كان هناك توافق صوتي سهل تعلم اللغة لسبق الإحاطة بحروفها؛ أي تعلم الحروف ونطقها يكون مُحصّلٌ تِلقائيا، وتبقى عملية تعلّم القواعد والتراكيب في مرحلة ثانية، ومنه إثراء المعجم اللغوي وتعميق الإحاطة الثقافية والفكرية. وعلى لعكس حين يكون النظام الصوتي غير معروف لمتعلم اللغة، فيصير التعلم مكثفا ومتشعبا في أكثر من شق (صوتيا، صرفيا، معجميا، نحويا، ثقافيا).

لهذا فواقعنا اللغوي يتطلّب منا متابعة جديّة للمتعلم الناشئ أو الطفل في مرحلته الأولى من التعليم؛ وتكمن أهمية هذه المرحلة في كونِ الطفل يمارس أوّل عملية تعلّم في حياته، لهذا يُصطلح على هذه المرحلة 'الفترة الحرجة في التعليم'. (حرجة من حيث مدى إمكانية أو سرعة وكثرة الاستيعاب أو بطئه وقلته).

وتعليم النّاشئة هو أول مرحلة تعليمية؛ تَتَميّزُ بكونها لغوية بدرجة كبيرة، أكثر منها عِلميّة مَعرفية، لأنّ أوّل ما يكون هو التَّعلِيم الآلي للغة بعدها يكون التَّعلِيمُ المَعرِفيّ، فاللغة تُكتسب أولًا وبعدها تكون وسيلة لتحصيل العلوم والمعارف. ونظرا لكون الطفل المتعلم وليدُ بيئةٍ ومُجتَمعٍ تَلقى منه أسس التواصل بين أسرته ومحيطه الصغير، فكلُّ هذه المكتسبات أو المعطيات التي حصّلها ستشكل له إمَّا زاد يسهل التَّعليم أو عقبة أمام تحصيل المكتسبات اللُّغوية الجَديدة للغات الفصحى التي يتعلّمُها مُستقبلا، حيثُ تحدث مجموعة من المقارنات والمقاربات في صفوف تلاميذ التعليم الابتدائي الجزائري بين للغة العربية الفصحى المُعلَّمة، وبين اللهجات المحصلة قبل عملية التعلمّ.

إنّ أولوية وسلطة التَّداول والاستعمال اللَّهجي بمستواه العامي البسيط على اللغة العربية الفصحى بطابعها النَّظري في الجزائر، يُسهِم في خَلقِ هُوةٍ بَين ما يستعمله الطفل في العَملِيةِ التَّواصُليّة، وبين ما ينبَغي أن يَتَعلّمه لأجلِ تواصل واستعمال رسمي للغة. فالثراء الصوتي لبعض اللهجات يسهّل عملية التعلم لأكثر من لغة، لكن ضيق وانحصار أصوات اللهجة ينعكس بصعوبة التحكم الفعلي في التَّداول الصحيح للغات الرَّسمية المخالفة للهجة المستعلة.

في ضوءِ هذهِ الفِكرة نَتَساءَل: ما مدى تأثير التَّداول على تحقيق وتثبيت المكتسبات اللُّغوية؟ هل ترسيخ المكتسب اللُّغوي في ذهن المتعلم مرتبط بالتداول الفعلي أم بمستوى وقيمة اللغة المكتسبة؟ وهل الطفل النَّاشئ يُسبّق القيمة التواصلية على القيمة النَّفعية العِلميّة للغة، أم يَجمَعُ بين كِليهما؟

ما التَّنظيم اللازم وضعه عند تعليم الطفل الجزائري، للخروج من تضاربات الواقع اللُّغوي بين لهجات واقعه المتداخلة ولغاتِهِ الوطنية والرسمية؟ وكيف ينعكس ذلك في المدى البعيد على تكوينه اللغوي، ومن بعده تكوينه العِلمي؟

ما هي سُبُلُ الاستفادَةِ من الوضعِ الرَّاهِنِ في تَحقِيقِ اكتسَابٍ لغويّ مُحكَمٍ للغة الفصحى الأمّ، وباقي اللُّغات الفصحى؟ كيف تكون اللَّهجات مَعبرا وزادًا لتعلُّمِ اللُّغَاتِ الفُصحى؟ خاصةً وأن قيمة اللغة تعرف من خلال مقارنتها بباقي اللغة الأجنبية.

سنقف في الخطوة الأولى من البحث على تحديد مفاهيم المصطلحات الرئيسية للموضوع وهي تَتمحور حول: 'تعليمية اللغة' عموما، وتعليمية اللغات للأطفال خلال الفترة الحرجة من عمرهم، وأطفال الجزائر منهم على وجه التحديد.

1- تعليمية اللغة:

العملية التعليمة للغة تَتِمُّ على مرحلتين؛ المرحلة الأولى: تكون بأنَّ تُتَعلَّمَ اللغة لذاتها للتمكن من قواعدها ونظامها التركيبي شكلا، ومن دلالاتها ومعانيها. وهنا تعد اللغة كعلم آلة. والمرحلة الثانية: هي الاستعانة باللغة المتعلمة لاكتساب العلوم والمعارف الحاصلة فيها؛ أي اللغة وسيلة لتعلم معارف أخرى. وعلى هذا تعرف التعليمية بأنَّها: "مجموع الطرائق والتقنيات والوسائل التي تساعد على تدريس مادة معينة"[1]؛ وبما أن العَملية التَّعلِيميّة تَقَعُ على عاتق المعلم وطرفَا العَمَليّةِ وهما المتعلِّم والمادَّة التعليمية. فهذان الأخيران هما ركنا التعليمية الأساسيان، لذا هناك من يعرفها انطلاقا من المشاكل الحاصلة فيهما، فتُعرف التعليمية بكونها: "تفكير في المادة الدراسية بغية تدريسها، فهي تواجه نوعين من المشكلات: مشكلات تتعلق بالمادة الدراسية وبنيتها ومنطقها (...) ومشاكل ترتبط بالفرد في وضعية التعلم، وهي مشاكل منطقية وسيكولوجية"[2]. وتعليم اللغة، هو: تعليم للحروف والمفردات والقواعد، وتسهيل ما يكون خلال هذه العملية من صعوبة في تحقيق مخارج الحروف، أو تفعيل قواعد اللغة في عملية النطق والكتابة.

وسنتعرض في بحثنا هذا إلى المرحلة الأولى من تعليمية اللغة، لأنها تتوافق والمتعلم الناشئ الذي يشتغل في مراحل تعليمه الأولى على تعلم اللغة لأجل التَّمكن من نظامها.

2- تعليمية اللغة العربية للأطفال في الجزائر:

لإعطاء صورة واضحة عن تعليمية اللغة العربية للأطفال بالجزائر لابد من مقاربة حال تعليمة اللغة العربية في منظومة التعليم الحكومية بالجزائر، وخاصة المرحلة الابتدائية، لأنها تمثل المستوى الأقرب لعكس الوضع الفعلي للعملية التعليمية التي يتجسد فيها التضارب والتداخل بين اللغة الرسمية واللهجة العامية.

فكيف أثر اضطراب الوضع اللغوي على تعليم اللغة العربية الفصحى للناشئة في الجزائر جراء تفشي العاميات وتمكنها من تغطية لغة التواصل اليومي؟ وما عقبات تعليم العربية الفصحى الرسمية في حال سيطرة اللهجات على ألسنة التلاميذ؟

هناك عدة قضايا تساهم في عرقلة تعلم اللغة العربية الفصحى للأطفال في الجزائر في مقدمتها:

- "تعثُّر المتعلم في المراحل الأولى من التمدرس، ناجم عن صعوبة الانتقال من لغة البيت (الدرجة والأمازيغية) [وأحيانا الفرنسية] إلى لغة المدرسة (العربية الفصيحة)، وعدم العناية بتطوير طُرق الدعم

اللائقة، تلافيا لسلبيات الازدواجية اللغوية"[3]، فحين تكون اللهجة هي كل شيء، ليس من السهل سحبها من لسان وذهن الطفل في المدرسة وفي لغته التواصلية.

- "ضعف إتقان اللغة العربية لدى المتعلم، وضعف نوعية تعليمها، وضعف الوسائط الموظفة في الأنشطة التربوية المرتبطة بها، مما يترتب عنه ضعف اكتساب المهارات والمعارف، وضعف المردود بصفة أعم"[4] لمناهج ووسائل التعليم دور كبير في التحصيل اللغوي الجيد، وفي تحفيز الطفل على الإقبال على التعلم، لهذا نتساءل: ما مدى عصرنة التعليم باللغة العربية الفصحى في الجزائر؟
- عصرنة التعليم من عدمه: إذ كان التعليم في العصر الحديث يحرص على جذب وتحفيز المتعلم إليه، فإنَّه يحق لنا أن نتساءل عن مدى جذب منظومة التعليم الجزائرية للأطفال إلى التعلم، ومن ثم تحفيزهم لبذل جهود أكبر في التحصيل. فهل المنظمة المتبعة في التعليم الابتدائي مثلا تحقق هذين الأمرين؟ (الجذب إلى التعلم، والتحفيز على الاستزادة منه).

يمكن مقاربة الوضع من خلال مقارنته بالواقع ومدى استحضاره للتقنيات التعليمية كمعيار، فالمتعلم حريص على التطلع إلى تعليم مختلف عن ما هو حاصل في البيت والمجتمع، وبالتالي هل هناك وسائل وتقنيات مبرمجة في عملية التعليم؟ إنه من الموضوعية في الدراسة القول عن التعليم الحكومي في الجزائر إنه تعليم غير جذّاب، وذلك نظرا لـ "عدم تجدّد طُرق التعليم والتعليم، وتجديد كفايات المدرّس تربويا وتأهيله باستمرار، وتوظيف أساليب تقليدية غير جذابة تعتمد التلقين والأساليب المتجاوزة التي لا تخلق التفاعل الضروري بين المادة والمدرّس والتلميذ، ونصوص غير مواكبة للعصر فكريا وتقنيا، وندرة استعمال الأدوات الإلكترونية كالأقراص المدمجة التعليمية ومحطات العمل الحاسوبية"[5]، بل إنّ التجديد الحاصل لا يحفز المتعلم ولا يتماشى وتطلعات اكتشاف مستجدات العصر، حتى أنّ التَّعليم بالحاسوب والهواتف الذكية وغيرها من الأدوات التقنية والبرمجيات من أساسيات الحضارية الحالية مفقود بصورة شبه كلية في المرحلة الأولى من التعليم، بينما الواقع يفرض توظيفه في جل الميادين إذ لا يخلو بيت أو مؤسسة من حاسوب وشبكة أنترنت، كما أن الهواتف الذكية صارت متاحة للكبير والصغير، بل للمتعلم وغير المتعلم، وهي وسيلة تعليمية جد محفزة حين تستثمر، بينما التعليم لا يشير إليها نهائيا. الأمر الذي يجعل التعليم الحكومي والعربية الفصحى أقل تحفيز وأقل جذب للمتعلم على الاستمرار فيها. أي تكنولوجيا الواقع أعلى من تكنولوجيا التعليم.

إن الاضطراب في التحصيل لدى الطفل -في الغالب- ناتج عن انقطاع في الفهم المتبادل بين المعلم والمتعلم، نظرا لكون الطفل منطلق من لهجة عامية. في حين المعلم مستند إلى برنامج رسمي بفصحى خالصة أو لهجة مختلفة عن لهجة المتمدرس. وهذا لا ينفي وجود عينات متمكنة من اللغات الفصحى في بداية مشوارها التعليمي، نتيجة الإشراف الأبوي المبكر على التكوين الخاص في اللغات في سن جدّ مبكرة.

3- التعليم اللغوي في الفترة الحرجة[6]:

نظرا لكون الدراسة تخص التعليمية عند الأطفال، لما لها من حساسية في رسم مسار التكوين في المراحل العمرية اللاحقة، نضعه في اطار المرحلة العمرية الأولى لتعليمية الفرد وهي: "الفترة الحرجة' التي لها أهمية كبرى في اكتساب الأطفال للمهارات اللغوية: "يوجد في حياة كل مخلوق فترة حرجة لتعلم بعض المهارات بحيث يكون

استعداد هذا المخلوق فيها أكبر من أي وقت آخر لتعلمها إذا تمّ تعرضه للمنبه المناسب، وأنّ التعليم يكون صعبا وأحيانا مستحيلا إذا مرت هذه الفترة الحرجة دون تعلم المهارة المطلوبة"[7].

السؤال المطروح: هل يمكن للهجة أن تؤدي رسالة العلم والمعرفة بصورتها التي هي عليها؟

التعليم اللغوي في هذه الفترة يكون لعقول متوقدة متحفزة للاكتساب، وحين تصادف موقفا سلبيا لأهل اللغة في التعامل معها، سواء في النُّفور منها أو انخفاض مكانها، فأقرب خيار يكون تجاوزها إلى غيرها من اللغات، لهذا لابد أن يكون في تعليم اللغة العربية للناشئة ما يحفزهم على اكتسابها والاستمرار في تعلمها من السنوات والمراحل الأولى في التعليم.

4- التعليم المعرفي خلال الفترة الحرجة:

تعليم العلوم وتلقين المعارف للناشئة يكون تاليا لتعليم اللغة ومتزامنا معها في بعض الأحيان، والتعليم كلما كان كاشفا للحقائق كلّما زاد السعي فيه، كما أنّ التعليم الذي يساير مستجدات الحياة التقنية عمليا هو الأقرب لجذب الطفل الميال إلى حب الاكتشاف للأشياء التي تشكل محيطه، وعليه "حصر لغة أي لغة، في مجال الآداب والعلوم الإنسانية وحدها، يؤدي في كل الحالات إلى إضعافها، وإبعادها عن حركية المجتمع في مجالات أخرى لا تقل أهمية مثل الاقتصاد والصحة والتقنيات المعاصرة ومجالات التسيير والاتصال، وقد يسفر ذلك الحصر عن ظهور اختلالات في المشروع المعرفي والحضاري للمجتمع.

من بين تلك الاختلالات المشاهدة في أغلب الأقطار العربية صعوبة الانتشار الأفقي للمعرفة وتعطيل توطينها وأعراض التلوث اللساني"[8]، ومما أفقد اللغة العربية الانتشار في الأوساط العلمية هو إفراغها من المحتوى العلمي ومستجداته.

5- الخريطة اللغوية واللهجية في الجزائر:

تمثل اللغة العربية في نصوص الدستور الجزائر اللغة الأولى الرسمية للبلاد، ومن هذا المنطلق كسبت نفوذها في لغة التواصل والتعليم، لكن مع اهتزاز أركانها في التسيير الإداري والتجاري بغلبة اللغة الفرنسية، زيادة إلى البربرية التي تعمل على بسط وجودها في لغة التواصل. وهناك من الدرلاسين من يحاول تشخيص علاقة اللغة العربية باللغات واللهجات بالجزائر فيقول: "العربية بمضامينها المستجدة ومخزونها في الذاكرة الجامعية، هي البيت الذي نسكن فيه ويسكن فينا، ووجود لغات أخرى إلى جوارها أو لهجات فيها، ليس خطرا أو بدعة إذا تم تحديد وظائف كل لغة في خريطة التعددية اللسانية، بحيث تكون العربية هي المحور الذي تدور حوله اللغات الأخرى، وخاصة الفرنسية التي ينبغي نقل وضعها السابق من لغة مفروضة إلى لغة أداتية أي مجرد نافذة وليس باب بيتنا ومفتاحه، وأفضل شراكة معها هي استخدامها مع غيرها لتمثّل توطين منتجات الثورة المعرفية والتكنولوجية"[9]؛ هذه المقولة تبين أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الأولى وتليها وتنافسها اللغة الفرنسية في المكانة والسيادة، زيادة إلى جملة من اللهجات العامية المتداولة في التعاملات اليومية. ولا يخفى الإشارة إلى الأمازيغية بتياراتها وفروعها المتنوعة.

أ- اللغات:

يمكن تحديد اللغات الكبرى الأساسية المتداولة في الساحة الجزائرية سواء بطريقة رسمية أو غير رسمية في أربع لغات هي:

- اللغة العربية. (لغة المحافل الرسمية للدولة)
- اللغة الفرنسية. (لغة الإدارة وجل التعاملات الرسمية)
- اللغة الأمازيغية. (لغة شق من التراب الوطني –الوسط الشمالي والشمالي الشرقي)
- اللغة الإنجليزية. (لغة الدراسات الأكاديمية المتخصصة).

لكنه عند البحث في التداول اللغوي بالجزائر نجد: "مجموعتان لغويتان: عربية وأمازيغية، تضاف إليهما لغة المستعمر المهيمنة فعليا على المشهد العام، وعلى كثير من المؤسسات ذات التأثير البيّن في حياة الأفراد"[10]؛ أي أن اللغة الإنجليزية شبه غائبة عن التداول بين أفراد الأمة الجزائرية وإنما تقتصر على البحث العلمي في الغالب، أو التدريس الحكومي.

وإذا كانت اللغة العربية واللغة الأمازيغية لغتين وطنيتين سادتنا بين أفراد الشعب، فإن اللغة الفرنسية تشهد تواجد رسميا وغير رسمي من غير وجود بواعث لها، عدا كونها لغة المحتل الفرنسي الذي غادر التراب لقرابة السبع عقود، ولم تغادر الفرنسية الألسن الجزائرية. "على الرغم من الجهد الذي بذل من أجل تعريب الإدارة والقضاء والتعليم والمؤسسات الاقتصادية، فإن اللغة الفرنسية بقيت هي اللغة المهيمنة في الوسط الاجتماعي"[11] والهيمنة على الوسط الاجتماعي ليس وليدة الصدفة، وإنما لها جهات واقفة وراءها لإبقاء اللغة الفرنسية في الساحة اللغوية بالجزائر، أما التمكين لها اجتماعيا فهو في الغالب لجعلها تكسب أحقية الحياة والوجود الفعلي من خلال انتشارها في الأوساط الاجتماعية والمعاملات اليومية بين أفراد المجتمع الجزائري وهذا ما يجعلها لغة أو لهجة حتمية الوجود على حساب دفع مكانة اللغة العربية الرسمية ولهجتها. وبالتالي فاللغة الفرنسية يسعى لفرض وجودها في الساحة بطرق غير رسمية على حساب اللغة الرسمية واللغة الوطنية "والحقيقة أن الصراع ما كان ليأخذ هذا المنحى الهوياتي السياسوي إلا بتفعيل لوبيات (جماعات ضغط) تسعى إلى إبقاء هيمنة الفرنسية على العقول وفي أروقة الدولة"[12].

ب- اللهجات[13]:

لا يخفى على أي دارس كون اللهجة أو اللغة الدارجة هي: "لغة التواصل اليومي ولغة الحياة، وهي اللغة الشعبية ولغة التعبير"[14]، مما أثبته علماء اللغة عنها أنها "لغة لا ذاكرة لها، وهذا يخفف عليها حركيتها وتجديدها وحداثيتها"[15] ولهذا يتم التأكيد على أنّ "الذي يوحد الأوطان ويرقيها ويعكس استشرافها ليس الدارجة، بل هو اللغة المتبناة من قبل الدولة الموحدة ولغة المدرسة والجامعة، ولغة الإدارة الفصحى، هي التي توحد بين مختلف مكونات المجتمع، وتربط الذاكرة بالمستقبل"[16]، سقنا هذا الكلام قبل ذكر لهجات الجزائر حتى نبيّن أنّ اللهجة لها دورها التواصلي وليس التعليمي أو الإداري، وعليه لابد من الإقرار بوجود تباين في المستوى بين اللغة العربية الرسمية وباقي اللهجات الأخرى. واللهجات الكبرى في الجزائر هي:

- اللهجات العربية في الصوت والتركيب (بالجنوب الجزائري).
- اللهجات العربية المفرنسة (في الشمال الجزائري).
- اللهجات العربية الأمازيغية المفرنسة (في الشمال الأوسط والوسط الشرقي).

6- اختلال الحوض اللغوي للتداول الفعلي للغة العربية الفصحى في الجزائر:

إن وضع السياسة اللغوية لأي بلاد يعد مؤشرا إيجابيا على واقعها، ويعكس كذلك التمسك باللغة الدولة الرسمية. فالدراسات اللغوية أثبتت أنّ: "اللغة تنقرض عندما ينقرض الناطقون بها أو يعزف عنها أهلها، فيعوضونها بلغة أخرى هي في غالب الأحيان لغة أقوام أقوى نفوذا أو سلطة أو ثقافة"[17]. بالتالي كلّما كان هاك حوض لغوي مثالي لأي لغة زاد معه التمكين والحيوية في تلك اللغة. والعكس يحصل بموت اللغات نظيرا لفقدان حوض الممارسة اللغوية. فهل تتوفر الجزائر على وسط لغوي تمارس فيه اللغة العربية الرسمية؟

إن أقرب كلمة للتعبير عن الممارسة اللغوية في الجزائر هي القول بأنّها مضطربة؛ واضطرابها هذا يستشف من عدم ثبات أي وسط لغوي على لغة أو لهجة واحدة، فحين نقول مثلا أن بلاد القبائل موطن الأمازيغية نجد فيها توظيف للعربية وللفرنسية، وحين نذهب عند الأميين وكون لهجتهم شعبوية نجد توظيف لمصطلحات ترسخت بحكم التجارية أو المعاملات والعلاقات. وغير ذلك من الأمور الذي جعلت ولايات الجزائر تسجل للهجات متنوعة ومختلفة في علاقتها ببعضها من جهة وفي ارتباطها بالعربية الفصحى أو الفرنسية أو الأمازيغية.

لكون استقرار الوضع اللغوي في الجزائر أو أي بلاد مقرون بالتحكم الدقيق في السياسة اللغوية، هذه الأخيرة التي يتحدّد نجاحها بـ "مدى انعكاس أثرها على حياة الأمة من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وفي استتباب الأمن اللغوي والفكري، وفي تراجع الصراعات العرقية واللغوية والإثنية التي تنخر المجتمع، فلا تدعه يتقدم أو ينال نصيبه من التنمية"[18]. فعلا الصراع اللغوي والعرقي في الجزائر هو الحاجز الأكبر للتنمية، وأولى الأولويات هي لإصلاح وتنظيم الوضع اللغوي من خلال إعداد خارطة جديدة لسياسة لغوية دقيقة في قراءة الواقع ومحكمة الضبط والتنظيم لمكانة اللغات واللهجات ومستويات توظيفها.

ومن النماذج التي ترسخت وتعكس عدم الالتزام بالسياسة اللغوية في الجزائر ما نجده في لغة الإشارات التجارية، التي كثيرا ما يستقى الأطفال لغاتهم ومفردات معاجمهم منها خاصة في العرض التلفزيوني لها: "النهج الذي نهجته الشركات التجارية في الجزائر في ميدان الإشهار (...) على المستوى المكتوب نراها تستعمل عامية غريبة خليطا بين لغة الشباب والفرنسية معبّرة عن مدلولاتها بالحرف العربي تارة والحرف اللاتيني تارة أخرى، وهذا الاستعمال كثيرا ما يغيب المعنى"[19]، وإذا كان هذا الأسلوب يؤدي إلى تغييب المعنى بين الشباب فهل يصل المعنى إلى الأطفال؟ وهل يجدون فيه النموذج التعليمي ليقتدوا به؟

7- الفصحى واللهجة في العالم الافتراضي والتواصل الإلكتروني:

إن أكبر خطر يترسخ للغة العربية في التواصل على الشبكات الافتراضية في الجزائر هو "تهجين الحرف العربي بالأجنبي في الكتابة"، إما بكتابة اللغة العربية بحروف أجنبية ممزوجة بأرقام أو كتابة الفرنسية بحروف عربية، وهذا يمكن أن نسميه لهجة كتابية للعربية والفرنسية على السواء. أي عملية استحداث للهجة في الكتابة بدلا من النطق والتداول. "ثمة تحديات ومخاطر تهدد اللغة العربية في العالم الافتراضي (الشابكة أو الإنترنت)،

ومن أبرزها الاستخدام المفرط للكلمات الأعجمية، مع توجه البعض إلى استخدام ما بات يعرف بـ (العربيزي)، وهي تشير إلى اللغة المهجنة التي يلوكها أبناء العرب في العالم الافتراضي وفيه تتداخل المفردة الأجنبية في نسيج بنية اللغة العربية مع استخدام حروف لاتينية في كتابة الكلمات العربية أو ظاهرة كتابة العربية بحروف لاتينية أو العكس، أي كتابة الكلمات الأعجمية بحروف عربية. وتلك الظاهرة جد خطيرة، حيث تؤدي –ضمن أشياء أخرى- إلى حقن البناء اللغوي للعربية بمئات بل آلاف الكلمات الأعجمية خلال فترات وجيزة. وهو حقن عشوائي مربك للغة العربية وموهن لقدراتها وفعاليتها ومشوه لبنائها ومنظومتها، بسبب عدم التزامه بالمعايير والشروط والطرائق المقننة لعمليات (الاقتراض اللغوي) و(التعريب)، كما أنه يحدث دونما ضرورة لغوية أو ثقافية، ومما لا شك فيه أنه يحمل فيروسات لغوية مدمرة"[20]. (وهذه الكتابات تتم من طرف فئات عديمة المستوى أو من طرف أفراد غير مهتمين ولا واعين بعواقب هذه العملية على البناء اللغوي السليم وخصوصيات اللغات الرسمية وأنظمتها، والأمثلة عليها كثيرة)، كما أنها شبكات مفتوحة للجميع مما يسهل على الأطفال تعلم هذه الأساليب اللغوية اللهجية التي تزيد من عراقيل تعليمية اللغة العربية الرسمية. إن شبكات الفيسبوك وتويتر والواتساب وغيرها من شبكات التواصل الافتراضية تمثل حقلا جديدا لتوثيق اللهجات مكتوبة بحروف لغوية هجينة من لغات متنوعة، ومفردات متباينة المستويات.

ومن المشاكل التي أوجدتها التطورات التقنية والمعلوماتية، نجد: "ثورة الاتصالات والثورة التقنية أوجدتا ظواهر وإشكاليات لغوية جديدة، ومنها ان عالمنا المعاصر صنّع -ما أحب تسميته بـ- (لوحة مفاتيح كونية)، وهذه اللوحة أسهمت في نقل (الفعل الكتابي) من كونه (فعلا نخبويا) إلى (فعل شعبوي)، وهذا يعني –ضمن أشياء كثيرة- أن مختلف الفئات الشعبية باتت تمتلك قدرة على التأثير، لا على (اللغة المنطوقة) فحسب، بل على (اللغة المكتوبة) أيضا، وكل ذلك مؤذن بتزايد التهديدات اللغوية وآثرها المدمرة على أبنية اللغات وتماسكها، فالعامة بطبعها تستسهل الأخطاء اللغوية ولا تعبأ بها، بل تراكم تلك الأخطاء وتعمل على توثيقها ودحرجتها، لتشوه اللغات وتدفعها إلى نوع من التشظي وربما الانتحار اللغوي."[21]. إن لوحة المفاتيح وشبكات الأنترنت المتاحة للعامة من الناس فتحت المجال للعامة في التحرير الكتابي والتوثيق الأحداث والخواطر من غير أدنى احترام للسلامة اللغوية ولا الالتزام بضوابط اللغة. المر الذي زاد من نسبة تميع اللغة وإنزال مكانتها في مقابل إعلاء اللهجات والتوثيق بها من غير نظام لساني يتحكم في العملية.

8- سبل الخروج من الوضع:

للخروج من هذا الوضع اللغوي المضطرب بين اللغات واللهجات في الجزائر لابد من التقيد بمجموعة من الإجراءات منها:

- ضرورة التشريع اللساني المحدد للغة الدولة المبيّن لمكانتها في التداول: الجدية في والصرامة في تفعيل القوانين المنظمة للغات وأولويتها في الاستعمال، ويتحقق هذا بضرورة "وضع ضوابط لاستعمال الفضاءات اللغوية"[22]، على أن تكون اللغة الرسمية هي العربية وسيادية في التواجد والاستعمال وشرعية في حفظ التراث ووحدة الأمة، لأنها بروز اللهجات ونفوذها يزيد من الفرقة ويحجب الهوية.
- العمل على التهيئة اللغوية (Aménagement linguistique) في الجزائر، وفق المفهوم الرئيسي لهذا المصطلح الدال على "تدخل الدولة لحماية اللغة والدفاع عنها تجاه لغة أخرى منافسة"[23] أو تجاه

لهجات محتلة لمكانها في الاستعمالات الرسمية. كما أن الوضع اللغوي بالجزائر يحتاج إلى تهيئة شاملة، على مستوى مؤسسات التعليم، والمؤسسات القانونية والإدارية والتجارية وغيرها من المؤسسات الحكومية التي توظف فيها اللغة زيادة على المجتمع وتعاملاته اللغوية وكذلك الصحافة والإعلام لما لهم من دور في الاستعمال اللغوي والترويج له. فمتى استقام مجال سهل الانتقال إلى غيره وبالبداية تكون من الأهم إلى الأقل أهمية، لأن قانون الغلبة والأكثرية يقتضي بأن يتبع الأضعف الأقوى وأن تسير الأقلية نحو ما استقر عليه لسان حال الأغلبية.

- خلق لهجة توافقية وليدة اللغة العربية الرسمية: نظرا لشيوع العاميات يلزم الاتفاق على لهجة توافقية جامعة لأبناء القطر الجزائري، وهي لغة المثقفين، ويمكن أن نصطلح عليها عامية الأكاديميين؛ فاللهجة التي يوظفها كل فرد في أسرته ومحيطه المصغر ليست هي اللهجة الموظفة في مؤسسة العمل، كما أنها ليست هي اللهجة الموظفة بين الطلبة والأساتذة والإداريين، لأنها تتميز يرقيها عن الغموض واللحن المرفوض سماعا وتركيبا إلى كونها أقرب للعربية الفصحى تركيبا ومعنى وصوتا. على أن تقتصر على الشق التواصلي غير الرسمي، بينما يبقى التواصل الرسمي والتعليم والمعاملات النظامية بالعربية الفصحى. وهذا لأجل تفادي نفوذ "العامية السوقية" التي باتت تقترب أكثر من الاستقرار في لغة الصحافة والمحطات الإعلامية والإذاعية، وكذا شبكات التواصل الاجتماعي.
- تفعيل دور العمل الجمعوي وإرفاقه بالتوعية اللغوية: والجمعيات كلها الرياضية، والثقافية، والدينية.
- العمل على تفعيل الفصحى في المحيط السوسيو اقتصادي، والسوسيو إداري والسوسيو ثقافي، لأجل ترسيخها في أذهان أبناء الأمة العربية باعتبارهم الجمهور المستعمل للغة.
- ثبات المسؤولين والإدارات على لغة مرجعية واحدة للدولة، لأنه متى ما مجّد المسؤول الأول للبلاد لغة، إلا وتبعه طاقمه وشعبه. والعكس يحصل إذا لا مجد ولا استقرار للغة ما دامت لم تستقر وتثبت على ألسنة شعبها بكل طوائفه.

خاتمه:

- اللغة العربية في الجزائر هي الظرف الحامل لهويتها، ومتى تراجعت مكانتها في التواصل والتعليم فُتح الطريق أمام اللهجات لأخذ مكانها، رغم عدم توفرها على المؤهلات التي تحفظ بها موروث الأمة ومقوماتها، وعليه فاستقامة اللسان من استقامة وتوحد المكون الثقافي المعرفي للأمة. واللهجة قاصرة عن الرقي، ومجال استعمالها محدود، في حين العربية الفصحى مجال مفتوح على استيعاب واقعها والانفتاح به على العالم.
- غياب الوعي بالمسألة اللغوية لدى الطفل يحتم على الأسرة والمؤسسة التربوية والمجتمع المدني بتركيبته التخطيط والتوجيه المسبق للطفل حتى يتموقع بخيار ينمّي تحصيله اللغوي، بما يتماشى وروح العصر من جهة، وكذا يتوافق بين لغة التواصل الفعلية ولغة التكوين العلمي حتى نصل إلى تداول اجتماعي راقي للغة والمعرفة.

- حين طرح حلول لإصلاح الوضع اللغوي المضطرب بين اللغة العربية والعامية لابد أن تصل هذه الحلول إلى الميدان الذي تتداول فيه اللغة بالفعل، ولا تكون الحول مفصولة عن ساحة الممارسة اللغوية. كأن تقدم مخابر أو مؤسسات جامعية حلول للظاهرة في حين المثقفين والعامة من الناس بعيدين كل البعد عن الأمر.
- كثرة التكرار والترادف للمفردات من أكثر من مستوى (عامية- فصحى، لغة أجنبية، أمازيغية) هو نتيجة فقدان بوصلة التواصل اللغوي الرسمية الموحدة مما جعل التواصل غامض بأي مستوى من المستويات الكائنة بالقطر الوطني. فالواحد منا يتكلم مع زميله الجزائري وهو غير مدرك للغة أو اللهجة الأقرب إلى تأدية المعنى المقصود.
- من أهم أسباب الفوضى اللغوية في الجزائر هو 'ضعف إدارة المسألة اللغوية' من طرف الدولة والمؤسسات، كذا من طرف الأسرة والمجتمع. الأمر الذي ساهم في غزو العاميات لميادين الحياة، بل وحتى المؤسسات الإدارية والتعليمية والاقتصادية.
- اللغة العربية تستمد شرعيتها وصفاءها من نصوص موثقة (دينية، أدبية، لغوية، فكرية،...)، في حين اللهجات الأخرى تكون مفرغة من غير استناد على قواعد أو نصوص. لهذا نقول إنه لمزيد شتات أن تدخل العاميات في تسيير شؤون العملية التعليمية.

ختاما نقول إن الترابط والتداخل الحاصل بين اللغة واللهجة عميق ومتشعب لدرجة يصعب معها وضع فاصل واضح بينهما حتى يقال هنا اللغة وهناك اللهجة. فإذا أمكننا الفصل بينهما من حيث ضوابط التركيب أو القواعد الإعرابية فإن التوافق في الحروف والنظام الصوتي، والتقارب في الثروة اللفظية وكذا الدلالات الصرفية والمعجمية تزيد من القرب بين هذين القطبين. وعليه فالطفل الذي ينشأ في وسط هذا التضارب اللغوي والاضطراب اللهجي لا ينتظر منه إصلاح الوضع اللغوي، بل نحن من يرسم خريطة السياسة اللغوية للعملية التعليمية، حتى للجيل الصاعد تكوين معرفيا مؤسسا وثابتا.

هوامش وإحالات المقال

[1] وزارة التربية الوطنية الجزائرية: المعجم التربوي، المركز الوطني للوثائق التربوية، الجزائر، دط، 2009، ص44

[2] المرجع نفسه، ص44

[3] عبد القادر الفاسي الفهري: أزمة اللغة العربية في المغرب بين الاختلالات التعددية وتعثّرات الترجمة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط5، 2010، ص17

[4] المرجع نفسه، ص16

[5] المرجع نفسه، ص56

[6] الفترة الحرجة للتعليم عند الأطفال نخص بها فترة الطفولة في مراحلها الثلاثة: "-مرحلة الطفولة المبكرة (قبل سن المدرسة 3-6 سنوات). – مرحلة الطفولة الوسطى (6-8 سنوات المدرسة الابتدائية). –مرحلة الطفولة المتأخرة 8- 12 سنة (المدرسة الابتدائية وبداية المتوسطة)"؛ أي يستثنى منها مرحلة ما قبل الولادة والمهد وكذلك مرحلة المراهقة والرشد. ينظر بتوسع أكثر: محمد حسن بريغش: أدب الأطفال أهدافه وسيماته، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط2، 1996، ص139.

[7] خالد عبد العزيز الدامغ: السن الأنسب للبدأ بتدريس اللغات في التعليم الحكومي، مجلة جامعة دمشق، مجلد 27، عدد 1 و2، 2011، ص762

[8] اللغة والهوية والتعددية اللسانية: كلمة محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، دط، 2006، ص25

[9] المرجع نفسه، ص24

[10] أحمد عزوز ومحمد خاين: العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي- بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ط1، 2014، ص73

[11] المرجع نفسه، ص73

[12] المرجع نفسه، ص74

[13] في هذا البحث اعتمدنا على مصطلح "اللهجات"، للدلالة على عموم المستوى اللغوي الذي يعرف مجاله بأنه دون اللغة الفصحى الرسمية للبلاد، من غير تفصيل في المصطلحات المستعملة في التعبير عن نفس المفهوم؛ أي أنّ كل من مصطلح: "اللهجة" أو "العامية" أو "الدارجة" أو "اللغات الشعبية" يدل ذلك المستوى اللغوي الأقل من مستوى اللغة الفصحى الرسمية، أنها تفتقد إلى النظام اللغوي في أقسامه الأساسية مجتمعة (الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية).

[14] محمد أديب السلاوي: اللغة العربية والصراعات المتداخلة، مطابع الرباط نت، المغرب، ط1، 2015، ص84

[15] المرجع نفسه، ص84

[16] المرجع نفسه، ص84

[17] مصطفى حركات: العربية بين البعد اللغوي والبعد الاجتماعي، دار الآفاق، الجزائر، دط، 2017، ص200

[18] أحمد عزوز ومحمد خاين: العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي- بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي، ص66

[19] مصطفى حركات: العربية بين البعد اللغوي والبعد الاجتماعي، ص83

[20] عبد الله البريدي: اللغة هوية ناطقة- منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، سلسلة كتاب المجلة العربية (197)، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1434هـ، ص43

[21] المرجع نفسه، ص44

[22] عبد القادر الفاسي الفهري: أزمة اللغة العربية في المغرب بين الاختلالات التعددية وتعثّرات الترجمة، ص63

[23] أحمد عزوز ومحمد خاين: العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي- بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي، ص68

المراجع:

1- أحمد عزوز ومحمد خاين: العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي- بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ط1، 2014

2- خالد عبد العزيز الدامغ: السن الأنسب للبدأ بتدريس اللغات في التعليم الحكومي، مجلة جامعة دمشق، مجلد 27، عدد 1 و2، 2011

3- عبد القادر الفاسي الفهري: أزمة اللغة العربية في المغرب بين الاختلالات التعددية وتعثّرات الترجمة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط5، 2010

4- عبد الله البريدي: اللغة هوية ناطقة- منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، سلسلة كتاب المجلة العربية (197)، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1434هـ

5- محمد أديب السلاوي: اللغة العربية والصراعات المتداخلة، مطابع الرباط نت، المغرب، ط1، 2015

6- محمد حسن بريغش: أدب الأطفال أهدافه وسيماته، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط2، 1996

7- مصطفى حركات: العربية بين البعد اللغوي والبعد الاجتماعي، دار الآفاق، الجزائر، دط، 2017

8- وزارة التربية الوطنية الجزائرية: المعجم التربوي، المركز الوطني للوثائق التربوية، الجزائر، دط، 2009.